صوت الآخر

بلاغة السلب في الخطاب الثقافي العبري: يهودا عاميخاي نموذجا [1]

عبد الرحيم الشيخ*

تقديم

يجيء هذا التقديم والترجمة لخطاب «يهودا عاميخاي» في الذكرى الخمسين لـ«قيام إسرائيل» استمكالاً لمقالة نقدية للكاتب بعنوان: «ما لن أراه ثانية سأحبه إلى الأبد»، ناقش فيها شعرية الحب والحرب عند عاميخاي ضمن إضاءة بانورامية على أعماله الأدبية، ونشرتها «الكرمل» في عددها السابع والستين لربيع 2001 .

(المحرّر)

في هذا العدد الذي تُضيف إليه «مواجهة» باباً ثابتاً على صفحاتها، تستبدلُ (أقواس)، بمنطق الواثق، مفهوم «الغير» أو الـ«غُوْيْ» الصهيوني بمفهوم «الآخر»، متجاوزةً عقدة المناعة الأخلاَقية (اللاأخلاقية في ذاتها!) التي يطرحها الفكر الصهيوني، ومعينه الديني المتمثل في اليهودية، بوصف الذات اليهودية هويةً متعالية تكمن فيها الفرادة وأصل الأشياء، فيما تتناثر حولها كل الذوات الأخرى كهويات مسخ لا تنوجد إلا كاستكمالات ديكورية في مشهدية الصورة الأصل، وخطاب الدفاع عن بلاغته الشوفينية. وبذا، فانشطار العالم في الثقافة العبرية إلى يهود وأغيار أو (غوييم/ *Gentiles*)، يقضي بأن يترك «الأغيار» ذواتهم على مفترق الآخر الأزلي والمتعالي والمختار، مفترق الهوية اليهودية بكل فراداتها المزعومة، ليس في أي توقيت تشاءه هذه الذوات، بل حين تقرر تلك الهوية الاستيهامية انتهاءَ مهمة هوية الـ«غُوْيْ» كمَعْلَم داثر مكنَّها من التعرُّف إلى ذاتها بالضرورة المنطقية لا بالضرورة الوجودية. وعليه، ستتركز مهمة هذا الباب في تجاوز الإجابات الفقيرة في توصيف خلفيات ذلك الصراع الكبير، نحو إجابة أكثر ملاءً بفحواها وفحوى نقيضها في آن.

إنّ تخومية العلاقة التي تفترضها العقلية الإسرائيلية، لاهوتاً وثقافةً وسياسةً، بين هويتها غير المكتملة (تبعاً للمعايير الصِّنافية للهويات القومية الحديثة) وهوية الآخر الفلسطيني كذات يُسعى لإحباط اكتمالها، إنما تقع في إعادة تشكيل

«حداثي» لتواجد يصعب توصيفه بأقل من تعبير «الغيتو النفَّاذ»، أو «الغيتو غير المحافظ» الذي يمكن أن يَرى، وعلى مضض، الفلسطيني مثالاً نموذجياً لـ«الواحد المؤقت» الذي تمنحه روايةُ الآخر عنه فرصة للكينونة على هامشه هو، لاستكمال صورته هو، وبلاغة توحشه هو، وأركيولوجية هويته هو.

ولنقض هذه المنظومة، ذات اللغة الإرهابية ووعيها الشقي والأكثر إرهابية بوجود الآخر (الفلسطيني)، يسعى هذا التقديم، ملحقاً بترجمة لخطاب الشاعر اليهودي «يهودا عاميخاي» في «الذكرى الخمسين لتأسيس دولة إسرائيل» أو لإعلان «استقلالها»، وعبر خطاب تفكيكي، إلى النفاذ إلى سيولة العمق المتحرك لمقولاته، وتبيان ما تحمله عُنْفيَّة الكتابة الشعرية أو السياسية المتلحِّفة بألق الشعر من كتل نمطية جاهزة ومؤطَّرة إلى تحويل الآخر (الفلسطيني) إلى فائض أسطوري، أو ديكور بلاغي لاكتمال الأسطورة الصهيونية عن ذاتها في حربها ضد الأغيار.

لا يتطاول التفكيك، هنا، ليطال خطاب الآخر بالتخريب أو التشويه، بل يسعى بأكثر من ذلك إلى سبر ما يعتري علائق التراكيب اللغوية وإحالاتها الدلالية (الثيولوجية في معظمها)، في صياغاته البيانية، من قلاقل تودي إحداها بالأُخَر. واستجلاء ما يكتنفها، على مستوى المنظومة الفكرية الكلية التي يتضمنها هذا الخطاب، أيضاً، من تجاوز للقيم الجمالية للخطاب الأدبي الحداثي، وذلك عبر الإطلالة على الرباط «المقدس» المزدوج بين الماضوية ونقدها، على طريق إعاقة رسالتها في التنظير لماضويتها الثابتة أو لحداثيتها الاستيهامية التي تحاول، متهالكةً، طرحها كاستكمال لتلك الماضوية النعمائية بالإكراه.

هنا، تجدر الإشارة إلى أن خطاب «عاميخاي» إنمّا هو خطاب سَلْب: بلاغياً وفلسفياً. أما بلاغياً، فهو يستحيثً صور الماضي الذي كان، ويردد مجازاتها، وبلاغة الإيجاب، أو البلاغة المبدعة، هي «المعرفة الآتية من المستقبل»، بتعبير أدونيس. وأما فلسفياً، فخطابه يعمد إلى نفي الآخر قبل أن يعمد إلى إثبات الذات، أي إن حجته المنطقية في تعريف الذات تبدأ بأقوى حيل المنطق الشكلي في التعريف، وهي النفي، لكنها تَندرج ضمن أضعف أشكال الكينونة في تحديد الوجود، وهو نقيض اللا - موجود عوضاً عن الموجود الكامل بامتيازه. ولكن السلب، كما يقترح «دريدا»، لا يقوم إلا على تقادم إيجاب فظٍّ سابق عليه. وبالتالي، فإن تفكيك السلب القائم لَيس يهدف إلى استحاثة مفاهيم الإيجاب الفظ، بل إلى كشف لحدوده يأكل، عبر تواصل التفكيك، ماهيتَّه بكليتها. وبالتالي، تغدو مهمة القارئ لخطاب «عاميخاي» مهمة صارمة توجب النهوض أمام بلاغة السلب أو قبالتها، تماماً على شفرة الحياد بين «الإيجاب المتقادم» و«السلب المحدَث»، بغرض تفكيك الأخير بقراءة قرائن الأول.

مثالٌ واحدٌ من خطاب «عاميخاي» يكفي لاستيضاح هذه المقولات النظرية، أما باقي خطابه فناضحٌ بما فيه. فهو لا يكاد يبدأ خطابه حتى يستعرض في فقرته الثانية تماماً ازدواج ذاكرته، أو فلنقل، للدقة، ثنائيتها. وهو

قبل كل شيء يقلب مقاييس الجمالية تماماً، أو يُخْرِجُ «ذاكرة المكان الأليف»، بتعبير باشلار، من سياقها، ويحرف بدئية الذاكرة عن فطرتها ليربطها بالذاكرة الجمعية الأسطورية التي تتهالك باحثة عن مرجعياتها في المخطوطات الخديجة للعهد القديم. وذلك بحديثه عن المخيال التوراتي الذي أُشْرِبَهُ أثناء بدء تعلُّمه العبرية في «بافاريا-بطرسبرغ» الألمانية. والتي ألمح إليها من خلال حبكة دفينة قد تكون جدّ عابرة وبريئة لو سقطت في خطابٍ صكَّهُ غير «عاميخاي»، وهي التنقّل بين خيالاتٍ الذاكرة اليهودية الجمعية المحقونة فيه بالإكراه في مروج ألمانيا الصالحة، رغم برودتها، لأن تكون مسرحاً لمواجهة توراتية نادرة بين داود و«جاليوت». والذاكرة الفردانيةً التي تسجل انفعالات الذهن بمادة الواقع العيانية، لا الأسطورية، في «وداي البطم» الحقيقي على تلال «يهودا» الفلسطينية بُعيد «حرب الاستقلال».

هنا، يدور الحديث هنا عن مرهونية «الآخر الموقَّت» ببلاغة الكولونيالية الغازية وشرطها التاريخي في توصيف هويتها وهوية نقيضها، المؤقَّت، المصلوب على بنود شرطها الوجودي، كما يقترح «تودوروف» في «مسألة الآخر». ولعله ما من شيء يكشف صواب هذه النظرة أكثر من استنطاق الإحالة، التي لم تكن عابرةً على الإطلاق وإن بدت كذلك، لحرب «داود» و«جاليوت». ففي حديثه عن انجدال التاريخ الفرداني بالتاريخ الدولاني، يرى «عاميخاي» أن ثنائية الحب والحرب، كفعلين إنسانيين، هي أيقونة الإدراك لفرادة العلاقة بين الخاص والعام. ولكن الآخر (الفلسطيني) لا يظهر على الإطلاق في مشهدية الخاص بوصفه ممارساً لفعل الخاص الأكثر إنسانية وجدوى (وهو فعل الحب)، بل يظهر كعدو مثالي وغير مسمى في مشهدية العام (وهو فعل الحرب) التي توجب على «عاميخاي» افتراض آخر عياني تُسْقَطُ عليه لعنة الحرب وتُنْسَبُ إليه أسبابها، وتكتمل به دورة المديح لمجد الذات المحتاجة إلى سلبِ النقيض ليكمِّلَ إيجابَها هي!

عند هذه المفصل، بالتحديد، يمكن استيضاح الإحالة التوراتية التي لم يذكرها «عاميخاي» لمجرد استعراض ثنائية الذاكرة اليهودية، وتغلُّب الذاكرة المتوحشة (الذاكرة الجمعية التاريخية) على الذاكرة الأليفة (الذاكرة الفردانية الحاضرة) في قصة «داود-جوليات»، وفي عقليته هو نفسه، إذ يمكن عبر تتبع هذه الإحالة من «سفر صموئيل» الأول (17-19)، بكل ما يحمل هذا السفر من خيالات دموية بشعة، ومفاهيم أبشع عن آخرية الآخر، الكشف عن محاولة «عاميخاي» تهجيرها من جزيرة سياقها الأسطوري إلى قارِّة أصغر استطاعت الإفلات من شبهة كونها جزيرة، إلى أرض «يهودا» التي تشهد واقعاً دموياً لا ينقصه إلا مخيال دموي أكثر بشاعة وشبقاً لعقدة الأحمر! يحكي المزموران السابع عشر والثامن عشر من «سفر صاموئيل» الأول فصلاً من حياة داود ابن يسَّى البيتلحمي، أصغر إخوته وأشجعهم، حين وقعت الحرب بين الفلسطينيين ورجال «شاؤل» و«إسرائيل» عند «وادي البطم» في يهودا. تبدأ هذه القصّة بخروج بطل فلسطيني أسطوري خارق القوة من بلدة جت يقال له «جاليوت» متحدياً جموع «شاؤل» بأن يخرجوا أحدهم لمنازلته، وضارباً لهم رهاناً تاريخياً بأن

يصير شعب المقتول عبيداً لشعب القاتل في تلك المنازلة . . . يواصل المخيال التوراتي تصعيد حبكة القصة من هلع «شاؤل» وجند «إسرائيل» وهربهم حين سماعهم رهان ذلك الفلسطيني خارق البنية والقوة وتهديده. وهنا، يعلن الملك الهارب، «شاؤل»، رأس «جوليات» الفلسطيني مهراً لابنته، فيتقدم داود إلى الميدان، بعد قصة طويلة مضحكة عن عدم مقدرته على حمل السلاح والحلق الذي كان يحمله مقاتلو ذلك الزمان، مكتفياً بعصا ومقلاع وخمسة حجارة ملساء من «وادي البطم» ليلقَى بها «جاليوت» الجبار أو «الفلسطيني الأغلف الذي عيَّر صفوفَ الله الحي». ويكون له ما أراد، نتيجة لمباغتة «جاليوت»، الذي استهزأ به وبسلاحه و«لعنَ داود بآلهته»، بحجر أطلقه من مقلاعة فانغرس في جبهة «جاليوت» الذي تهاوى كأن لم يكن ليخترطَ داودُ سيفَ «جاليوتَ» من غمده ويقطع به رأسه، ولينفذ تهديده له بأن يعطي «جثث الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض. . لأن الحربَ للرب الذي دفع الفلسطينيين إلى أيدي شاؤل وجنده!».

. . تواصل المزامير التالية في «سفر صموئيل» الأوّل روايتها عبر هذا المخيال البربري لقتل «الفلسطيني الأغلف الذي عيَّرَ صفوفَ الله الحي!»، ويواصل «عاميخاي» عبر مخياله الشعري المتنقل بين «بافاريا» ووديان «يهودا» تركيز حبكته في نفي الآخر بوصفه (بتسميته عربياً فلسطينياً)، وبالإصرار على كونه آخر غير مسمَّى. وبذا، فإن مَصْدَرِيَّة الزمن عند «عاميخاي» تحيل خطابه إلى فوضى الذاكرةَ التاريخية (الأسطورية)، أو انتعافها بالأحرى؛ لأنّ الفوضى قد تشكل نظاماً في بعض الحالات، على سطح ضيق للغاية للذاكرة الشخصية، تلك الذاكرة التي تتحول «الأنا» فيها إلى قشرة غير قادرة على التعبير عن وجودها دون الاندفان، لا الاندغام، في الذاكرة الجمعية الأسطورية. وهنا يغدو الآخر الفلسطيني، بتحوير منهجي لمقولة «جاك ماهو»، «رديفاً تكميلياً غير مسمى»، لا يظهر إلا في هامش الأسطورة المنتصرة لهويتها على كل أشكال الآخَرِيَّة. أي إن الآخر، في أحسن أحواله عند «عاميخاي»، هو صورة الآخر لا واقعه، وهو في هذه الحالة تحوير ساذج لفائض الآخر من الوجهة الأسطورية. إذ هو ما رسمته تداعيات الأسطورة لفائضها الواقعي عندما صُدمت بأنه جزء من واقعها المعيش الذي تجاوز زمنَها المصدري ليعيش في زمنها الأفقي، وليقاسمها صياغة حبكة هذا الزمن، بل ولينافسها في روايته والأحقية بالابتداء في رواية الرواية.

. . وحتى لا يطغى هذا التقديم على المادة المراد التقديم لها، تجدر الإشارة، أخيراً، إلى أنه رغم استراتيجيات التأويل المختلفة التي يغص بها الحقل النظري لبحث الآخر ومقترحات تفكيكه، فإن اكتشافنا نحن لـ«الآخر المرجّأ» الذي في ذواتنا، هو شرط اكتشافنا للآخر العياني الذي نريد نقضه، أو استبداله بواحدة من صور آخَرِنَا المشتَهَى. وهنا فقط، يمكننا الحديث عن معرفة الآخَر، حين نمكِّنه من العبور من ذواتنا، أو من «آخرنا المرجّأ» بتعبير «دريدا»، إلى صورته الحقة التي تخرجه من إطار صورتنا نحن، ومن إطاره الاستيهامي بوصفه «اختراعاً تاريخياً»، كما وصفه «جان فارُّو»، وكما حاول آخَرُنَا نفسهُ تشكيلَنا في مرآةِ سَلْبِه المعتمة. ولكننا،

كفلسطينيين، قبل ذلك التشكيل وبعده، ما زلنا على قولنا بأننا، وإن كُنَّا موضوعَ كره للآخر اليهودي، فلن يكون يوماً في حيز الحب أو الكره الذي فينا، لأن حبنا لفلسطين استهلك حيز القلب كلّه، فلم يعد ثمّة من متسع لحب الآخر أو كرهه!

***

«شعبي حي»

تأمّلات في الذكرى الخمسين لـ «قيام إسرائيل»

«حينما كنتُ فتياً كانت بلدي كلها فتية، وأبي
أباً للجميع كان. عندما كنتُ سعيداً، كانت بلدي
سعيدة أيضاً، وعندما قفزتُ عليها قَفَزَتْ هي تحتيْ
العشبُ الذي يغطيها في الربيع أنعمَ ملمسي، أيضاً
والأرض الجافة في الصيف آذتني كباطنِ قدمي المشققْ
عندما وقعتُ أول مرةٍ في الحب،
أعلنوا استقلالها
وعندما رفرف شعري للنسيم، رفرفت أعلامُها
عندما قاتلت في الحرب قاتلَتْ
وعندما استيقظتُ استيقظَتْ
وعندما غرقتُ بدأت تغرقُ معيْ

الآن أبدأ في ابتعادي عن كل ذلك:
مثل شيء تم إلصاقه بعدما جفَّ الملاطْ
أنا صرتُ أنحو للانفصال والانطواء على نفسيْ

في اليوم ذاك، رأيت زمَّاراً في جوقة الشرطةْ
التي كانت تعزف في قلعة داود
شعره كان أبيض ووجهه هادئ:
وجه 1946، السنة الواحدة والوحيدة
بين السنوات الشهيرة والرهيبة
التي لم يحدث فيها شيء غير الأمل الكبير، وموسيقاه،
وحبي لفتاة في غرفة هادئة في «أورشليمْ»
لم أره منذئذ، ولكن الأمل بعالم أفضل
لم يفارق وجهه».

***

لقد كتبت تلك القصيدة قبل عشرين عاماً مضت، كتبتها في لحظة استعادة. فأنا أنتمي إلى جيل أمضى طفولته في «أرض إسرائيل» قبل «قيام دولة إسرائيل»، سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية. ولذا، فقد كبرنا مع الدولة، فكانت حياتها وحياتنا صنوين. عندما كتبتُ في تلك القصيدة إنني كنتُ «منعزلاً ومنطوياً على نفسي» لم أكن أقصد انطواءً حقيقياً، بل كان، بأكثر من ذلك، استبطاناً وتوسطاً وجودياً. فقبل العام 1939 لم يكن في هذه الأرض سوى نصف مليون يهودي فقط، كانوا، غالباً، كتلة مؤتلفةً بمصير مشترك. لقد عشنا في ستين سنة ما عاشته الولايات المتحدة في مئتي سنة، ولا نزال مفعمين بالفاعلية والانخراط، ولا يزال لنا صوتنا.

لم أكن مماثلاً لأبناء جيلي. فقد ولدت في ألمانيا في العام 1924 لعائلة أرثوذكسية متنورة، وتعلّمت العبرية في الروضة وفي سنواتي الأولى في مدرسة يهودية. لقد عشت طفولة سعيدة محاطاً بالغابات الألمانية والحقول والأنهار، لكن هويتي اليهودية كانت هي المسيطرة. جبل سيناء كان شديد الانحدار هناك، في مشهدية طفولتي،

وكان «وادي البطم»، حيث تحارب داود وجُوليات، مساحة خضراء بين التلال المغطاة بالغابات على ضفتي النهر. بعد سنوات عدة، في أوائل الخمسينيات، كانت وحدتي الاحتياطية تجري مناوراتها في وادي البطم الحقيقي. وهنا، أُغلقت الدائرة: الوادي القفر على حدود تلال «يهودا» اندغم في قلبي بالوادي الأخضر لأيامي الأولى.

ومن نواحٍ أخرى، كذلك، لم أكن مماثلاً لأبناء جيلي. فقد كان أجدادي يهوداً قرويين في جنوب ألمانيا يملكون أرضاً ومزارع ومراعي أبقار. لقد كانوا أصوليين محافظين ولكنهم كانوا يحيون أيامهم كالفلاحين المحليين. بين العامين 1934 و 1936 هاجرت عائلتي، المكونة من سبع أسر، بأكملها إلى «إسرائيل». لا أزال أستطيع تذكُّر المهاجرين الأوائل يرقصون على متن السفينة طيلة الليل. لقد نشأتُ إلى جوار جدتي وعدد كبير من عمومتي وأبنائهم. لم يقضِ أي من عائلتنا في المحرقة، وقد كان ذلك أيضاً، وبصورة لافتة، على غير ما عليه حال أبناء جيلي الذين ولدوا في «إسرائيل» ولم يكن بإمكانهم نهائياً التعرّف على قسم كبير من ذويهم.

بنظرة إلى الوراء، رغم ذلك، لا أرى وجوداً لأفراد أو عائلات، ذوي تاريخ مشابه، من أبناء جيلي، إذ لم يطابق أي منا ما كنا نوصف به. ولكننا، مع ذلك، لا نزال مشتركين بعوامل فاعلة وقطعية: استيطان الأرض، «الهاغاناه»، «الجيش البريطاني»، «البلماخ»، تهريب المهاجرين والأسلحة، والحركات السرية. هذه الأشياء كلها قولبتنا ضمن مجموعة متميزة من اليهود الجدد.

وحتى عَبْرَنَة أسمائنا الأخيرة (أسماء عائلاتنا) كانت متماثلة. في العام 1946 دفعت شلنين، وغيرتُ اسمي إلى «عامي خاي» (شعبي حي!). هذا الاسم، والذي لم يكن ترجمة لاسمي السابق، يشهد على الشعور بالمصير المشترك، والحالة النفسية السائدة التي مزجت الصهيونية والاشتراكية بأفضل ما يمكن أن يبلغاه من حسّ أسمى بالحقيقة وأقصاه. عندما أتحدث عن تكوين «اليهودي الجديد» فإنني لا أستحضر خرافة «الصابرا»، إذ فكرة اليهودي الجديد أبعد غوراً وأكثر أصالة. فجيلي هو من صاغ أسس الصورة الجديدة لليهودي، ولذلك الإطار اليهودي الجديد الذي يمكنه استيعاب المهاجرين من ثقافات متباعدة، بمن فيهم كل أصناف الأصوليين المتطرفين، تحت أعلامهم أو من دونها.

ولذا، فإن خلاصة القول في «إسرائيل» في الذكرى الخمسين على «إقامتها» تداني خلاصة حياتي بأفراحها وأتراحها، بآمالها وخيباتها. لم أكتب، أبداً، قصيدة حرب لم يرد فيها ذكر الحب، ولم أكتب أبداً قصيدة حب لا تتجاوب فيها أصداء الحرب. لم يكن السفر السليماني مصيباً في حقنا عندما قال إنه لكل شيء أوانه وموسمه، إذ إنه بالنسبة إلينا كانت الأزمان والمواسم جميعها مختلطة بعضها بالبعض الآخر. فتجاربنا الشخصية التحمت بالأحداث القومية وامتزجت بها لدرجة استحال فيها التمييز بين الاثنتين.

ولأكن أكثر يقيناً، فإن قلبي مليء بالمظالم، إذ ما هكذا تصورت «الدولة»، وما بهذا كنتُ قد حلمت. قائمة مظالمي طويلة، وهي مظالم مبررة في معظمها، إذ نحن

نعرف الآن ما لم يكن بوسعنا معرفته آنئذ، وبعض مظالمي هي سمة الجيل المعمّر عموماً، ربما. ثمة قلة قليلة منا ومن الجيل الجديد لا يعرفون يوسف. فيوسف، بالنسبة لنا، هو يوسف ترامبلدور الذي قتل في «تل حاي» في العام 1920، القائد القديم العظيم الذي جمع بين الاستيطان والأمن والاشتراكية.

لا نزال حتى الآن نطلق تذمراتنا بالعبرية، وهذا هو نصرنا في حربنا المستدامة ضد التاريخ. العبرية لا تزال حية وبخير، وهي قوية كما ينبغي لها أن تكون لاستيعاب التأثيرات الأجنبية ومصطلحاتها. فالصهيونية قد تكون مفردة ولّى عهدها الآن، ولكننا إذا تحدثنا عنها بوصفها «الثورة اليهودية العظمى»، فإننا نبلغ دهش الحقيقة أكثر. في الثورتين العظميين للحداثة، الثورة الفرنسية والثورة الروسية، كانت كل أمة تسكن أرضها التاريخية وتتحدث لغتها القومية، ولكن الحالة لم تكن ذاتها بالنسبة إلى اليهود حين صنعوا ثورتهم. ولذا، فثمّة ملاء خاص لمعنى كون الثورة اليهودية أعظم ثورة في التاريخ الحديث. كل شيء يبدو لنا شراً أو فساداً، إنما هو، الآن، تحديث ما – بعد ثوري.

بعد حرب الاستقلال، غنينا أغنية «حاييم حيفر»: «كل شيء ليس كمثلما كان، المدينة بنيت حيث كانت الخطوط الأمامية». وفي الحقيقة إن المدينة قد بنيت حيث تموضعت نقاط الخطوط الأمامية، لخير هذا البلد أو لشره. (سيكون شارع عابر إسرائيل الجرح الأعمق الذي ابتلي به مشهدنا). بضع سنوات من الآن، سيشهد الأبناء آخر أحياء أعضاء «البلماخ»، تماماً مثلما شهدنا نحن قبل ستين عاماً الأعضاء الروّاد لحركة «هاشومير» في «كفار جلعاد». في هذه الأيام يكاد «بن غوريون» بالكاد يرمز إلى مطار. ولعلّها حقيقة أن المستوطنين في المناطق المحتلة، الذين يسكنون بيوتاً تحرسها قوات الجيش الإسرائيلي، وتدعمها «الدولة» والعامة، وتُبنى بأيدي العرب. يرغبون في مقارنة أنفسهم بالروّاد الأوائل وحُماة «هاعنيتا» و»نيغفاه» و«طيرات تيزفي». إن هذه مقارنة استيهامية، لكنها نفسها علامة بأن المنظومة الصلبة لـ«دولة إسرائيل» إنما كانت متموضعة قبل العام 1948.

مرة أخرى، إن اختزال القول في دولتي إنما هو صنو اختزال القول في حياتي أنا، إذ إن مشاهد حياتي الشخصيَة لتنجدل تماماً بتاريخنا الآخذ بالانتساج. اليوم يعد شاطئ «نتسانيم» شاطئاً جميلاً ومحمية طبيعية رائعة، ولكنه في صيف 1948 كان ميداناً لمعركة أجدود الضارية، وهي واحدة من المعارك الحاسمة في حرب الاستقلال. الآن، عليَّ دفع رسوم تسجيل لأتمكن من إلقاء نظرة على المكان الذي سيبقى بالنسبة إلي مكان تلك المعركة الرهيبة. اليوم، عين جدي هي متنزه قومي، يجذب آلاف الإسرائيليين والسياح. ولكنني عشت حباً عظيماً هناك، عندما كان من الصعوبة جداً بلوغه، وعندما كان عليك، إذا أردت الذهاب، أن تسلك طرقاً ترابية إلى جانب طريق «سدوم». الآن عليَّ شراء تذكرة لزيارة مشاهد ذكريات حبي الحميمة. هذه مجرد أمثلة لكيفية نماء الأشياء بعضها بدواخل الأخرى، وكيف يأخذ المجتمع و«الدولة» شكل الحيوات الفردية. هذا هو مسار التاريخ: الحرب والحبّ.

قبل سنوات عدة، التحق أحد أبنائي بلواء «غفعاتي» (رفيقنا في السلاح في سالف الأيام حين دافعنا عن جنوب النقب). وقد تم أداء القَسم على مقربة من قلعة «عراق صيدون». اليوم يسمى المكان «ميتسودات يوآف». بوقوفي هناك، مع أبوة آخرين، استدعيت وجودي هناك في محاولات رهيبة وغير ناجحة لاحتلال ذلك الحصن في العام 1948. أُغلقت دائرة أخرى الآن. وابنتي الأصغر التحقت بالجيش في السنة الماضية. وكالعادة، كان الآباء قد دُعوا لحضور مراسم اختتام الدورة التدريبية. واقفاً هناك، تذكرت أنني وقفتُ في المكان ذاته تماماً في «تزرفين» (صرفند حينها) في العام 1942 كمجنَّد جديد في الجيش البريطاني. كنتُ في الثامنة عشرة من عمري، تماماً كابنتي. لو قال لي أحد إنني سأقف في المكان ذاته بعد خمسين عاماً مع ابنة لي بالزيّ العسكري لـ«الدولة اليهودية»، لكنت ضحكتُ ضحك المتأمل في الفانتازيا.

كلّ شيء يكون للأحسن أو للأسوأ، ولكنه يكون. كلّ شيء مختلف اليوم عن الأمس، لكنه كائن. سأختتم بقصيدة كتبتها حديثاً، والتي لا تزال بلا عنوان حتى اللحظة:

(.....)

بين «غات» و«غالون»، في غسق يوم حارّ ومغبر
مرَّت امرأةٌ حيث رابطنا على متراس معركة رهيبةْ
بين «غات» و«غالون»، بين أعياد الحصاد للصيف
والخريف في الحقل-الهشيمْ
التبن والقش، هي أيضاً، نعم تسبح الله «هللولويا»
البهجةُ لا تفهم الكلماتْ
البهجة انسربَتْ غناءً من فمها ومن جسدها
كل الأطايب السبع: القمح، الشعير، العنب، التين، الرمان، الزيتون، الرطبْ
... كل الأطايب السبع
بنطالها قصيرٌ، وسيقانها طويلة، ووجهها يبدو كآمالنا
وعيونها هي لون ما فينا من احتمالات
والغروب هو لون حُبها
(ومتى بكت آخر مرة؟)
وهيئة مشيتها بين الماضي والمستقبلْ
بين طيِّب الأوقات، وبين الشك واليقين،
تتمايل بوركيها وفخذيها وكأنما في الرقص
(ومتى سوف تبكي لاحقاً؟)
وداعاً للشك الذي يحرِّك أعمارَنا،
وداعاً لكلمات لن تعودْ
كلمات كالطيور المهاجرة التي ما لها أوروبا ولا أفريقيا
وليس لها إلا هنا، مع الإمرأة الشابة بين «غات» و«غالون»،
هنا، والآن، وفي أزمان أخرى.

---

* ناقد وشاعر فلسطيني يقيم في الولايات المتحدة.